معلومات لنشر المقياس على منصة التعليم الإلكتروني Moodle

1- بطاقة التواصل ومعلومات المقياس :

إسم ولقب الأستاذ : : بن حسين مصطفى
البريد الإلكتروني : : mostapha.benhocine

- الكلية : **العلوم الإنسانية**
- القسم : **التاريخ**
- المستوى الدراسي : **الأولي ماستر**
- السداسي : **الثاني**
- الرصيد : 04
- المعامل : 02
- الحجم الساعي: **7 محاضرات**

3- أهداف المقياس (وفق المنهاج) :

تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط (علاقة الغرب الإسلامي مع السودان الغربي)

(المحاضرة الأولى)

I-جذور العلاقات بين الشمال الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء في الفترة القديمة"

تمهيد:

بالرغم من أنه قد مر عن ما كتبه ابن بطوطة وابن خلدون (1332- 1406م)، من القرن الرابع عشر الميلادي، عن إفريقيا جنوب الصحراء ما يقارب الستة قرون، إلا أنها لا تزال أساسا للدراسات الإفريقية حول السودان الغربي بصفة عامة ومملكة مالي الإسلامية بصفة خاصة، وفي هذا المنوال ننوه إلى أن عبارة " السودان الغربي" لم ترد أصلا في كتاباتهما ولا في كتابات من سبقهما من مؤرخين أو جغرافيين أو رحالة مسلمين، بل وحتى في كتابات الذين جاؤوا بعدهما في القرون الخمسة التالية، وإنما ظهرت خلال القرن التاسع عشر الميلادي عندما اكتشفت منابع نهري النيل والنيجر، وعرف أنهما نهران منفصلان عن بعضهما وليسا نهرا واحدا، فأطلق الأوربيون اسم " السودان الغربي " على منطقة نهري السنغال والنيجر، بينما أطلقوا مصطلح " سوادن وادي النيل " وكذلك " السودان المصري " على المنطقة الواقعة جنوب مصر.

أما بالنسبة للمسلمين مثل ابن خلدون وابن بطوطة وغيرهما ممن كان قبلهم فكلمة "السودان" كانت تعني منطقة أوسع مما هو مسمى حاليا بالسودان الغربي، وكانت إفريقيا السوداء جنوب الصحراء بالنسبة لهم عبارة عن ثلاثة أقسام هي :

1- **قسم بلاد السودان** : وهي المنطقة الممتدة جنوب الصحراء من المحيط الأطلسي في الغرب إلى نهر النيل في الشرق، وقد اعتقدوا أن نهر النيل هو نهر النيجر وأنهما نهرا واحدا ولذلك سموا نهر النيجر بالنيل أو بحر النيل.

2- **القسم الثاني** : هو بلاد الحبشة (القرن الإفريقي: الصومال، إيريثيريا، جيبوتي، أيثيوبيا).

3- **والقسم الثالث** : هو بلاد الزنج.[1]

ويجب أن ننوه هنا أيضا إلى أنه كانت في القارة الإفريقية بداية القرن الرابع عشر الميلادي، ثلاثة قوى رئيسية، هي " دولة المماليك " في مصر ومركزها القاهرة، و" دولة المرينيين " في المغرب

[1] -أنظر بن فضلان.العمري، مسالك الأبصار وممالك الأمصار.

ومركزها فاس، ثم دولة مالي في السودان الغربي ومركزها نيامي، وكانت هذه القوى الثلاثة متصلة فيما بينها اتصالا سياسيا وتجاريا وثقافيا.[1]

ولكن ما الجديد الذي قدمه ابن بطوطة وابن خلدون ولم يذكره أسلافهما وسابقيهما، والجواب على ذلك أن المسلمين كانوا يعتمدون على مصدرين رئيسيين لمعرفة ما يجري خلف الصحراء :

1-الرواية الشفوية : وهذه مصدرها السودانيون أنفسهم والمسلمون المترددون على السودان للتجارة والزيارة، وأحيانا للعمل والاستقرار، وهذه كثيرا ما ينتج عنها معلومات بعيدة عن الصحة والصدق عن أحوال السودان الغربي وشعوبه لأنها لم تكن محكمة بشروط خاصة.[2]

ب-الكتابات التي كتبها كبار المؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين الذين اهتموا بالسودان الغربي وتحدثوا عنه في كتاباتهم أمثال علي بن حسن المسعودي (ت. 957م) في كتابه مروج الذهب، وأبو القاسم في حوقل (ت. 977م) : المسالك والمماليك، وأبو عبيد الله البكري (ت. 1094م) : المسالك والمماليك، وأبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي الهاشمي القرشي (ت. 1160م) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وياقوت الحموي (ت. 1228م) : معجم البلدان، وأبي سعيد الغرناطي (ت. 1274م) : كتاب الجغرافيا في الأقاليم السبعة، وهؤلاء كلهم كانوا قبل ابن خلدون وابن بطوطة.

أما الفينيقيون واليونان ثم الرومان فقد اعتبروا المنطقة الواقعة خلف الصحراء الكبرى أرضا " مجهولة مرعبة "، ولذلك لم يترك لنا مؤرخوهم ما نثق به، بالرغم من أن بعض الكتاب اليونان والرومان كتبوا عن الزنوج القادمين من وراء الصحراء الكبرى منذ القرن الثاني الميلادي، ولكن تلك الكتابات كانت تعتمد على حياة وسلوك أولئك العبيد الزنوج الذين نُقلوا من مواطنهم الأصلية إلى شمال إفريقية ثم أوروبا.[3]

ومهما يكن من أمر فإن المقصود من مصطلح السودان الغربي، هي تلك المنطقة التي تقع جنوب الصحراء الكبرى والممتدة من المحيط الأطلسي غربا وبحيرة تشاد شرقا والتي ضمت عددا من الوحدات السياسية مثل : جاو، وتكرور في السنغال، وغانة، ومالي.

---

[1] - أنظر ابن فضلان العمري، مسالك الأبصار ومماليك الأمصار، ص 4.

[2] - أنظر: ابن خلدون: المقدمة، بيروت، أوالكتاب اللبناني، 1967م، ص 448.

[3] - Baba Ibrahima kake : Glossaire critique des expressions géographiques concernant le pays des Noirs, Paris, Présence Africaine, 1965, p 10.

وقد ارتبطت هذه المنطقة بعلاقات تاريخية وصلات تجارية وثقافية مع بلاد المغرب منذ أمد بعيد أعانت عليها المسالك الصحراوية التي مهدت للسُبُل أمام التجار والفقهاء والدعاة.

شرح المصطلحات الواردة :

1- مدينة جاو: تقع شمال العاصمة باماكو ببلاد مالي، وكانت خاضعة لسيطرة مالي إبان عصور ازدهارها وتوسعها في منطقة السودان الغربي، وكان السلطان منسا موسى قد قام ببناء مسجد بها إثر عودته من أداء فريضة الحج عام 1325م، وأشرف على بناء هذا المسجد الكبير المهندس الشاعر القرطبي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي، وكان السلطان منسا موسى تعرف على أبي إسحاق بمكة المكرمة خلال حجه عام 1324م فدعاه إلى بلاده وصحبه معه عند عودته إلى مالي.[1]

(المحاضرة الثانية)

ثم أصبحت جاو العاصمة السياسية لإمبراطورية سنغاي، ومركزا من مراكز التجارة للسودان الغربي، حيث نمت سريعا لوقوعها على نهاية الطريق الصحراوي عبر المنطقتين الشرقية والوسطى من الصحراء الكبرى المتجه نحو حوض نهر النيجر، ومكنها موقعها على منحى نهر النيجر نحو الجنوب بإشرافها على حركة الملاحة والتجارة على امتداد النهر نحو الجنوب والغرب، وتيسرت اتصالاتها بهذه المناطق، فتجمعت في المدينة بضائع المنطقة كلها، وارتادتها القوافل التجارية منذ القدم، ونتج عن هذا النشاط التجاري توسع جاو وامتداد حدودها إلى المناطق المجاورة، فأخضعت ثمانية من ملوك السودان، وصارت مدينة جاو المدينة التجارية الأولى في وسط نهر النيجر.[2]

2- التكرور : تقع على الضفة اليسرى لنهر السنغال، وهي بذلك تقابل على الضفة اليمنى مجال انتشار قبيلة جدالة الصنهاجية، كان اسم ملكها " ورجابي بن رابيس في أوائل القرن الخامس الهجري، وإليها تتجه قوافل المغرب الأقصى، بينها وبين سجلماسة أربعون يوما.[3]

---

[1] - أنظر: عبد الفتاح الغنيمي: حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، د ت، ص 145؛ عبد الله بازينة؛ إنتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، منشورات جامعة 7 أكتوبر، الإدارة العامة للمكتبات والمطبوعات والنشر، مصراتة، الجماهيرية العظمى، ط 1، 2010 م، ص 146

[2] - أنظر: عبد الله سالم بازينة؛ انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ص 146؛ الهادي المبروك الدالي؛ التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999 م، ص 309- 310

[3] - أنظر: البكري أبوعبيد الله بن عبد العزيز: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص 172؛ الإدريسي، ص 18؛ الهادي المبروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا، ص 47.

3-غانا: هي من أقدم الدول التي نهضت في السودان الغربي وبلغت عظمتها ما بين القرنين ال3هـ وال5هـ/ ال9م والـ11م، وكان اسم غانا يُطلق على الملوك وعلى البلاد والعاصمة.[1]

وقد اختلف المؤرخون في من حكموا غانا، أما الدكتور محمود كعت فقد أورد في كتابه تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، أنه يرجح انتماءهم لصنهاجة.[2]

أما السعدي فقد أورد في كتابه تاريخ السودان أنهم البيضان[3] غير أنه لم يستطع نسبتهم إلى فئة معينة، والبيضان هي غرب الشمال الإفريقي، ويذكر البعض إلى أن الذين حكموا دولة غانا كانوا قد قدموا من المناطق الشرقية من ليبيا في القرن الثاني الميلادي.[4]

وقد ضمت دولة غانا المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر السنغال ونهر النيجر إلى مشارف الصحراء الكبرى، وفي عام 380هـ/ 990م وصل نفوذها إلى أودغست وشملت عدة ولايات وإمارات.[5]

4- أودغست (أودغشت): مدينة من مدن السودان الغربي، ذكر البكري أنها تقع بين الزنوج ومدينة سجلماسة على بعد واحد وخمسين يوما من غانا، وتبعد أودغست عن القيروان مائة وعشر مراحل.[6]

5- مالي : ظهرت دولة مالي الإسلامية على أثر نفكك دولة غانا الوثنية عام 496هـ/ 1076م على أيدي المرابطين وقد أحدث ذلك التفكك فراغا سياسيا في المنطقة نتج عنه كيانات سياسية مستقلة، وبعد الصراع الذي استفحل بينها حول السلطة آل الأمر أخيرا إلى قبائل الماندنجو المسلمة القاطنة في إقليم كانجاب التي يرجع إليها الفضل في إنشاء مملكة مالي الإسلامية.[7]

وقد قاد الملك سندياتا كيتا (636-653هـ/1238-1255م) قبائل الماندنجو إلى النصر، إذ هزم مملكة الصوصو المنافسة بزعامة (سومانكودو)، وأتاح هذا النصر له ولرفاقه السيطرة على جل الأجزاء

---

[1] - أمين توفيق الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا- تونس، الدار العربية للكتاب، 1984م، ص 305؛ أمين توفيق الطيبي : الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى، ممالك غانا ومالي وسنغاي، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، يوليه، 1980م، ع2، س2، ص 42؛ الهادي المبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية، ص 15.

[2] - محمود كعت، باريس، نشر هوداس وبنيه، 1964م، ص 42؛ الهادي المبروك، مملكة مالي، ص 15.

[3] - عبد الرحمان السعدي، باريس، نشر هوداس وبنيه، 1964م، ص 9؛ الهادي المبروك، مملكة مالي، ص 15.

[4] - Abdoulaziz Dialo, « Sirie de conférences relatives aux relations entre le Mali et le monde Arabo- Islamique à partir du moyen Age », le centre culturel Islamique, Bamako-Mali, Première partie : L'Empire du Ghana, Aout, 1980, p.1. الهادي المبروك، مملكة مالي، ص 15، هامش3.

[5] - أحمد شلبي، "موسوعة التاريخ الإسلامي"، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1963م، ج6، ص 103؛ آدم عبد الله الألوري، "موجز تاريخ نيجيريا"، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965م، ص 152؛ الهادي المبروك، مملكة مالي، ص 16.

[6] - البكري: ص 159.

[7] - الهادي، مملكة مالي، ص 22.

التي كانت ضمن نطاق دولة غانا، وأن يقيموا دولتهم الجديدة التي عرفت بمملكة مالي الإسلامية وذلك عام 638هـ/ 1240م.[1]

(المحاضرة الثالثة)

المسالك التجارية :

يعود الفضل في اكتشاف إفريقيا في العالم القديم إلى شعبان أسيويان هما الفينيقيون والعرب ففي حوالي سنة 2250 ق.م. كانت السفن الفينيقية تتاجر مع سواحل مصر بسفن محملة بالأخشاب المستجلبة من غابات لبنان، فيما كان العرب يحضرون إلى مصر وهم محملين بالبخور واللبان من بلاد اليمن السعيد، إلا أن الفينيقيين لم يكونوا يعرفون ما وراء دلتا النيل، رغم أنهم قاموا باستكشاف سواحل الشمال الإفريقي المطلة على البحر المتوسط وانتهوا من ذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فكان لأهالي صور الفينيقيين الاحتكار التام للتجارة مع إسبانيا في القرون التالية، ففي الثامن قبل الميلاد اجتازت سفن فينيقية أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، كما أنهم استكشفوا سواحل المغرب المطلة على المحيط الأطلنطي، أما العرب فقد توفرت عندهم المعلومات عن شواطئ البحر الأحمر وأبحروا ما بين القرن الحادي عشر ق.م. والقرن الثامن ق.م. إلى الشاطئ الجنوبي لخليج عدن الذي كان في ذلك الوقت امتدادا للصومال، ثم عرفت هذه المنطقة فيما بعد باسم ساحل القرفة، وأما بالنسبة للسواحل الإفريقية المطلة على المحيط الأطلنطي، فلم يصل بحارة وصيادي العالم القديم الإسباني إلى أبعد من جزر الكاناري canaries أو " الجزر السعيدة "، ثم تم اكتشافها نهائيا بفضل بعثة أرسلها الملك جوبا الثاني Juba II (ت. 23م) ملك موريتانيا.[2]

أما السواحل الإفريقية المطلة على خليج عدن والمحيط الهادي، فقد استطاع العرب الدوران حول رأس العطور الذي هو رأس الصومال [رأس جاردافوي cape Guardafui] ووصلوا بعد ثلاثة وعشرين يوما حتى نقطة ربطة Rhapta (جزيرة زنجبار بتنزانيا)، وهناك أنشأ العرب مركزا تجاريا لجمع واستجلاب العاج وربما تكون هذه النقطة موقع قريب من جزيرة زنجبار Zanzibar أو أنها الجزيرة نفسها، وهناك أنباء عن وصول إحدى السفن العربية إلى رأس براسوم (رأس دلجادو cape delgado)

[1] - نعيم قداح، "إفريقيا الغربية في ظل الإسلام، ص 49؛ آدم عبد الله الألوري، "موجز تاريخ نيجيريا، ص 55؛ عبد الله حشيمة، ص 224. علي عبد الله الخاتم، التعليم في غرب إفريقيا، ع 3، ص 23؛ الهادي المبروك، مملكة مالي، ص 22.

[2] -كولين ماكيفيدي: أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987 م، ص 65.

على الساحل الإفريقي (شمال موزنبيق) وهذه أبعد نقطة ربما يكون العرب قد وصلوا إليها، أما بالنسبة لداخل القارة فلم يعرف شيء أبعد من جنوب واحات فزان Fezzan [1].

ومهما يكن من أمر فإنه يصعب التسليم بوجود تجارة منتظمة بين المنطقتين قبل القرن الثاني الهجري/القرن 8م[2]، وقد اعتبر لمبارد " هذه المسألة من أعظم أحداث العصر الوسيط العالي وينتهي إلى التسليم بأنه منذ أواخر القرن الثاني الهجري ارتبطت تجارة العالم الإسلامي بهذه الشبكة الجديدة من طرق القوافل والتي تشمل شبكات الشرق وبحر الروم، ففتحت أمام طرق المواصلات العامة أفق العالم السوداني بكامله[3]، كما يسلم "موني" « Mauny R. » بأن معرفة إفريقيا جنوب الصحراء لم تكن إلا على يد العرب المسلمين، ويستبعد أن يكون القدماء قد عرفوا الصحراء جنوب توات أو فزان[4]، كما أن أهم الطرق التجارية كانت حتى تلك الحقبة تتجه باتجاه شمال- شرق وجنوب - غرب منطلقة من الواحات المصرية ومن جنوب إفريقية نحو منحنى نهر النيجر مارا عبر صحراء فزان، إلا أنه بطل استخدامه قبل القرن الرابع الهجري لأسباب طبيعية وأمنية[5]، وحول هذا ذكر بن حوقل أنه شكلت الرياح والعواصف الرملية عاتقا مدمرا لغالبية القوافل المارة بهذا الاتجاه، الأمر الذي دفع إلى هجرانه والانتقال منه إلى سجلماسة[6]، غير أن العودة إلى هذا الطريق استأنف في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي.[7]

وعموما فقد اكتملت الروابط بين الشمال والصحراء الإفريقية وجنوبها في القرون الخمسة الأولى عبر ثلاثة مسالك رئيسية وتفرعت عنها طرق ثانوية هي :

أ-**الطريق الأول** : الطريق الغربي، ويربط المغرب الأقصى بالسودان الغربي.[8]

ب-**الطريق الثاني:** الطريق الأوسط، ويربط تيهرت بالسودان الغربي.[9]

---

[1] -المرجع نفسه، ص 66.

[2] -فتوح مصر والمغرب والأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1964 م، ص 94؛ تاريخ إفريقيا والمغرب، تحقيق عبد الله المعلي الزيدان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1990م، ص72.

[3] -الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، 1979 م، ص 26.

[4]- Mauny (R), Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen Age d'aprés les sources Arabes, Ifran, Dakar, 1961, p. 118.

[5] -إدريس صالح، العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام، مجلة البحوث التاريخية، بغداد، العدد الأول، 1983م، ص 77، 86.

[6] - صورة الأرض، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، د.ت.،ص65.

[7] -صباح الشيخلي، تاريخ الإسلام في إفريقيا، مديرية مطبعة التعليم العالي، بغداد، 1978م، ص 93.

[8] -بحاز إبراهيم: الدولة الرستمية (160- 296 هـ/ 777- 909 م)، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، نشر جمعية التراث، القرارة، ط 2، 1993 م، ص 217.

[9] -جودة عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م، ص 215.

ج–الطريق الثالث: الطريق الشرقي، ويربط مناطق طرابلس بالسودان الغربي.[1]

أ– **الطريق الأول** :

الطريق الغربي : وقد ذكر اليعقوبي في كتابه البلدان أن هذه الطريق تبدأ من سجلماسة لمن سلك متوجها إلى القبلة، يريد أرض السودان[2]، كما أكد الحموي أهمية هذا الطريق.[3]

وعندما تغادر القافلة التجارية مدينة سجلماسة نحو الجنوب، تتوغل في الصحراء الغربية لتصل إلى قوم يقال لهم أبنية، حسب ما ذكر اليعقوبي[4]، ويستمر سير القوافل إلى أن تصل إلى أودغشت (أودغشت) (ظل الغموض قائما في تحديد موقع أودغشت إلى أن توصلت إحدى الدراسات الغربية بعد التنقيبات التي أجريت سنة 1939م، أنها تقع إما جنوب ريكز Irkiz أو في أفولي Affoly [5])، ثم يستمر الطريق إلى مدينة غانة كما ذكر ابن حوقل.[6]

وهناك فرع آخر للطريق الغربي، والذي يبدأ من مناطق السويس في المغرب الأقصى مارا بالصحراء الغربية ومنتهيا بمدينة غانة.[7]

*سجلماسة ـــ أودغشت ـــ غانا

* السويس (المغرب الأقصى) ـــ الصحراء الغربية ـــ أودغشت ـــ غانا

ويصف بن حوقل هذا الطريق ويذكره في شكل مثلث رأسه أودغشت وأقصر أضلاعه بين السوس وأودغشت، والضلع الآخر هو الممتد بين سجلماسة وأودغشت، ومنها إلى غانة، وإلى مراكز الإنتاج السوادنية مثل كوغة، وهكذا كشف هذا الجغرافي عن وجود طريق رابط بين السوس الأقصى وأودغشت، في القرن الرابع الهجري.[8]

وبهذا يُعد الطريق الغربي من أنشط الطرق التجارية الصحراوية إلى بلاد السودان خلال القرن الرابع الهجري، بعد أن بطل العمل بطريق مصر ـــ غانة عبر صحراء فزان.

ب– الطريق الثاني :

[1] -البكري، المسالك والممالك، ص 182-183؛ بحاز إبراهيم، الدولة الرستمية، ص 218- 219.
[2] -اليعقوبي: كتاب البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، 1987 م، ص 115.
[3] - الحموي، معجم البلدان، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1984 م، ج 3، ص 192.
[4] -اليعقوبي، كتاب البلدان، دار إحياء التراث، بيروت، 1987 م، ص 115.
[5] -جودة عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 م، ص 260.
[6] -ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د .ت، ص 96- 97.
[7] -البكري، ص 159- 168.
[8] - ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د .ت، ص 91.

الطريق الأوسط : يربط تيهرت بالسودان الغربي وذلك بواسطة طريقين رئيسيين هما :

أ – طريق غربي، يمر عبر سجلماسة

ب – طريق شرقي بالنسبة للأولى، يمر عبر ورجلان (ورقلة ouargla).[1]

أما الطريق (أ) فتسير فيه القوافل من تيهرت إلى فاس، ثم باتجاه سجلماسة مارا على مدينة يقال لها أوزكا، بها فخذ من زناتة يقال لهم بنو مسرة، ثم يواصل إلى سجلماسة[2]، وقد قدر الحموي المسافة بعشرة بعشرة أيام[3]، وفصل الإدريسي هذا المسلك من فاس إلى صفروى إلى تادلة إلى آغمات إلى بني درعة إلى سجلماسة.[4]

(المحاضرة الرابعة)

أما بن حوقل فيذكر طريقا آخر مباشر من فاس إلى إقليم آغمات إلى سجلماسة في ستة عشر مرحلة.[5]

أما الفرع الثاني من الطريق الرئيسي (وهو الطريق (ب)) فيبدأ من تيهرت إلى حصن ابن كرام عبر متيجة إلى إمارة هاز إلى بلد بني دمر إلى بوابة بلاد الزاب من الجهة الغربية وهي أدنة[6] إلى المسيلة إلى مقرة[7] إلى طبنة إلى بسكرة إلى ورجلان إلى أدرار إلى أفوقاس إلى تادمكة التي (كانت مركزا مركزا تجاريا هاما) إلى مدينة كوكو إلى غانة والمراكز السودانية الأخرى.[8]

ويوجد عدة طرق فرعية لهذا الطريق الرئيسي، منها من القيروان إلى بلاد الجريد (حيث مدينة قسطيلية بالجنوب التونسي) إلى واحة ورجلان إلى مناطق السودان الغربي.[9]

ج– الطريق الثالث :

الطريق الشرقي : وهذا الطريق يربط مناطق طرابلس بالسودان الغربي مارا بجبل نفوسة في اتجاه مدينة غدامس، ثم إلى تادمكة ومنها يصل إلى منحنى نهر النيجر .[10]

طرابلس ـــ جبل نفوسة ـــــ مدينة غدامس ـــ تادمكة ـــــ منحنى نهر النيجر.

---

[1] - جودة عبد الكريم، العلاقات....، ص 248.
[2] -البلدان، ص 114.
[3] -الحموي: المعجم، ج 3، ص 192.
[4] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 243.
[5] -ابن حوقل، صورة الأرض، ص 90.
[6] -اليعقوبي، ص 107، 109.
[7] - ابن حوقل، صورة الأرض، ص 87.
[8] -البكري، ص 183.
[9] -البكري، ص 182.
[10] -البكري، المصدر السابق، ص 182، 183.

وهناك فرع ثان للطريق الشرقي الذي يربط مناطق طرابلس وبرقة بالسودان الأوسط (كانم بالتشاد Le Tchad) عبر صحراء فزان، ويبدأ من طرابلس باتجاه الجنوب إلى صحراء فزان ويمر بزويلة المحطة التجارية المهمة في صحراء فزان، ثم يسير إلى مناطق كانم بالسودان الأوسط*، وعلى هذا يمكننا القول بأن مناطق برقة وطرابلس ارتبطت بالسودان الأوسط والغربي بطرق تجارية سارت عبر صحراء فزان[1].

(طرابلس ـ باتجاه الجنوب ـ صحراء فزان ـــ زويلة ـــ كانم (بالسودان الأوسط).

والظاهر أن طريق السودان الأوسط (كانم) كان سالكا منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حيث مارس الإباضيون التجارة عبر فزان إلى بلاد السودان، وقد دلت الحقائق التاريخية عن وجود علاقات تجارية بين حاكم كانم وحاكم جبل نفوسة " أبو عبيدة عبد الحميد الجنادي "، إذ كان هذا الحاكم يعرف اللغة الكانمية، ولا شك أن هذه المعرفة باللغة نبعت من وجود صلات بين الإباضية وبين كانم، إذ كانت العلاقات بينهما اقتصادية بالدرجة الأولى، خاصة وأن الإمارة الإباضية التي نشأت في زويلة أثناء القرن الرابع الهجري تحت حكم بني خطاب الإباضي مارست نشاطا تجاريا كبيرا في كانم عبر الصحراء.[2]

وبعد هذه العرض لا بد من الإشارة إلى أن هذه الطرق التجارية التي ذكرناها، تتحكم بها عوامل سياسية واقتصادية وجغرافية تؤدي إلى تغيير مسالك القوافل من وقت لآخر، غير أن اتجاهاتها عموما تبقى ثابتة، مادامت المراكز التجارية الواقعة عليها لم تفقد قيمتها لسبب ما، ومن أمثلة ذلك أنه بعد ما اندثر الطريق الذي يربط مصر بالسودان الغربي المار عبر فزان بسبب العوامل الطبيعية، اتجه التجار إلى استعمال طريق سجلماسة ــ أودغشت، كما نشط الطريق الأوسط الذي ربط وارجلان بالسودان الغربي بفعل العامل السياسي المتمثل في نشاط الإباضية عبره بعد أن سقطت الإمارة الرستمية في تيهرت، وقد كان للصراع الذي حدث في هذا الزمن بين مختلف القوى السياسية للسيطرة على بعض الطرق التجارية من أجل استمرار تدفق الذهب السوداني، كالصراع الذي شهدته المنطقة بين العبيديين (الفاطميين) وأمويي الأندلس من أجل السيطرة على الطريق الصحراوي الغربي الذي ينطلق من

* -تقدر المسافة بين فزان وزغاوة مسيرة شهرين، وبين زويلة واجدابية نحو أربعة عشر مرحلة، أنظر: البكري، المصدر السابق، ص 10.

[1] -ابن حوقل، المصدر السابق، ص 90 ؛ موريس لمبارك، المرجع السابق، ص 85.

[2] -ابن خلدون، العبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، 1979م، ج 6، ص 191- 192؛ إدريس صالح، العلاقات الاقتصادية، ص 77.

سجلماسة، وكان من نتائج هذا الصراع أن تدخل الأمويون في المغرب الأقصى لمنع العبيديين (الفاطميون) من الهيمنة على تجارة الذهب مع السودان[1]، وفعلا تمكن الأمويون في فترات من القرن الرابع الهجري من استعادة التحكم في الطريق الغربي، بينما بقي الطريقين الأوسط والشرقي تحت السيطرة العبيدية (الفاطميون)، ويذكر الجنجاني في كتابه، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، أن السيطرة الفعلية على الطريق الأوسط كانت عبر وارجلان بالنسبة للخوارج الإباضية، ولم يفلح العبيديون (الفاطميون) في السيطرة عليها تماما[2]، رغم الحملات العسكرية التي سخرت لهذا الغرض، وكانت آخر محاولة لهم للسيطرة على المسلك الغربي سجلماسة ــ أودغشت ــ بلاد غانة للحصول على الذهب السوداني سنة (347 هـ/ 958 م).[3]

ومهما يكن من أمر فإن العبيدين (الفاطميون) كانوا أصحاب السيطرة المطلقة على الطريق الغربي خلال الفترات التي خضعت سجلماسة فيها لسيطرتهم، واستمر هذا الحال حتى رحلوا إلى مصر في عام (362هـ/972م)، وقد حاول هؤلاء، بعد رحيلهم، إحياء المسلك الرابط بين مصر وبلاد السودان تعويضا عن المسلك الغربي، وذكر "ابن الأبار" أن يحي بن علي بن حمدون الجذامي بن الأندلس" [4]، قد استعمل هذا المسلك عندما فر من الأندلس متجها نحو القاهرة، إذ يقول : " فصار إلى سجلماسة ثم ركب الصحراء إلى مصر، فقابله العزيز بالله أبو المنصور نزار(ت.386هـ/996م) وهو عصرئذ الخليفة العبيدي بها".[5]

(المحاضرة الخامسة)

ثانيا : أنواع المبادلات التجارية وحواضرها

لعبت التجارة عبر العصور، دورا لا يُستهان به في ربط الاتصالات بين السودان الغربي وبلاد المغرب الإسلامي طوال قرون عديد. واعتمدت كل الممالك التي حكمت السودان، على التجارة وما تجنيه من أرباح لدعم حكمها، ولذلك اهتمت بتنظيمها وتخصيص مراكز لها، إذ كانت بلاد السودان الغربي همزة وصل بين البلاد الواقعة شمالها والتي ما وراء الصحراء في جنوبها. واعتبرت كذلك منطقة

[1] - محمود إسماعيل عبد الرزاق، الأدارسة (172 – 375 هـ)حقائق جديرة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991 م، ص 174.
[2] -الجنجاني، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطبيعة، بيروت، 1980 م، ص 68.
[3] - الجنجاني، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي و...، ص 68.
[4] -عن هذه الشخصية من القرن الرابع الهجري، أنظر : الابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ط 2، 1985 م، ج 1، ص 173؛ ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان و أ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة،بيروت، ط3، 1983م، ج2، ص242-244.
[5] -ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، ط 2، 1985 م، ج 1، ص 307.

عبور للسلع بين المنطقتين والمتمثلة في الذهب والملح والعبيد وريش النعام والعنبر وبعض التوابل، والثياب والأواني النحاسية والزجاجية والتمور من جهة أخرى. وكانت التجارة عبر تاريخ السودان الغربي، هدفا لأطماع الأقطار المجاورة والبعيدة في الاستيلاء على هذه الثروة التجارية، وهكذا توالت دول السودان كل واحدة تريد الاستيلاء عليها، وجر عليها أطماع البرتغال، وأطماع البلاد الواقعة شماليها، إذ غزاها المرابطون في القرن الحادي عشر الميلادي والسعديون في القرن السادس عشر الميلادي.

لم تكن صادرات بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي تقتصر على البضائع المغربية فحسب خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بل كان هناك أيضا بضائع مصدرها المشرق وحوض بحر الروم التي حملها التجار العرب عبر الطرق الصحراوية المتعددة، ومن السلع الأساسية التي حملها المغاربة إلى بلاد السودان الغربي نذكر الحبوب والتمور التي كانت نادرة في تلك الأصقاع البعيدة، وقد ذكر البكري في كتابه المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب أن مدينة أودغشت " كان يجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد " [1]، وخاصة من ورجلان وقسطيلية، كما كان يحمل إليها " النحاس المصبوغ والثياب المصبغة بالحمراء والزرقة " [2]، وعلاوة على ذلك كان المغاربة يصدرون إليها أيضا الجلد المدبوغ الذي تنتجه غدامس وزويلة وأغمات ومدينة فاس [3]، إلى جانب الأواني الفخارية التي صُدرت إلى أودغشت وذلك منذ عهد الدولة الرستمية [4]، وذكر صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (الإدريسي) أن التجار كانوا يدخلون بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار والعطر ...[5]، وقد كان يحمل النحاس المسبوك من مدينة إيجلي، الواقعة في منطقة السوس، إلى بلاد السودان أيضا[6]، أما مدينة سجلماسة فقد كانت القوافل تتجه منها إلى أودغشت وغانة ومنطقة تكرور بأنواع التمور والزبيب والبضائع المصنوعة يدويا ومحليا في سجلماسة والمتمثلة في المنسوجات [7]، وقد ذكر كتاب البلدان للحموي أن الملح وخشب الصنوبر كانا يحملان من سلجلماسة إلى غانا بالإضافة

[1] -البكري، المصدر السابق، ص 48، 158.
[2] -البكري، المصدر السابق، ص 48، 158.
[3] -اليعقوبي، المصدر السابق، ص 102؛ مجهول، الإستبصار، ص 145؛ محمود إسماعيل عبد الرزاق، الأدارسة، ص 73.
[4] -اليعقوبي، المصدر السابق، ص 98؛ مجهول، الإستبصار، ص 145.
[5] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 18، 232.
[6] - مجهول، الإستبصار، ص 212- 213.
[7] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 225- 226؛ الجنجاني، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، 1980م، ص 181.

إلى الزجاج الأزرق وأسورة النحاس الأحمر وحلق الخواتم المصنوعة من النحاس [1]، وأغلب الظن أن هذه السلع جلبت أصلا من المشرق إلى بلاد المغرب والتي حملها المغاربة بدورهم إلى بلاد السودان، فيما يذكر صاحب الاستبصار (مجهول) أن بلاد السودان كانت تستورد أيضا سميد الأرض (L'angrés) من مدينة فاس [2]، وبما أن أهل السودان كانوا يجففون السمك والحيتان التي يصطادونها من النيل ومن نهر السنغال والنيجر وكانت هذه قوام معيشتهم، كان الملح من أهم السلع التي كان يجلبونها من بلاد المغرب لانعدامها في مناجمهم [3]، وفي ذلك يقول البكري (المغرب) : " ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى (من وادي درعة إلى بلاد السوس) وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوما، تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونها من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة ... ويحمل هذا الملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة " [4]، وعلى هذا يتضح من نص البكري أن الملح لم يكن في الحقيقة متوفرا كفاية في بلاد المغرب وإنما كان التجار المغاربة يستبدلونه ببعض سلعهم في الصحراء الكبرى ثم ينقلونه إلى إمارتي غانا وكوكو، وكان ثمن ما يحمله الجمل الواحد من الملح إلى غانا ما بين مائتين أو ثلاثمائة دينار عظيمة " [5]، وأحيانا كان يباع الملح بوزنه أو ضعفي وزنه ذهبا أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم[6] (وهو ما يعرف في زماننا هذا بقانون السوق في العرض والطلب)، وكان هذا الملح يحمل إلى بلاد السودان عن طريقين، الأول صحراوي كما ذكرنا، والثاني بواسطة السفن عبر المحيط إلى سواحل السودان الغربي، فقد ذكر الإدريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أن السفن كانت تسير لبلاد السودان الغربي، ثم تدخل نهر السنغال إلى دواخل بلاد السودان الغربي حتى سلا وتكرور وغانة [7]، ومقابل تلك السلع التي كان بلاد المغرب يصدرها إلى السودان كان هو يجلب الذهب منها منذ منتصف القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي[8]، وقد بلغت هذه التجارة أوجها في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حيث كانت قوافل ذهب

---

[1] - الحموي: المعجم، ج 2، ص 12.
[2] - مجهول، الإستبصار، ص 181.
[3] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 17.
[4] - البكري، المغرب، ص 171.
[5] - ابن حوقل، صورة الأرض، ص 98.
[6] - الغرناطي، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات دار الأفق الجديدة، المغرب، 1993م، ص 39.
[7] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 17.
[8] - إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي الاسلامي في العصر الوسيط، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1996م، ص 53-54.

السودان الغربي تنطلق من ورجلان إلى كاغو بمالي[1]، وقوافل أخرى من سجلماسة إلى أودغشت فيجلب منها الذهب الخالص خيوطا مفتولة، وكان ذهب أودغشت من أجود أهل الأرض وأصحه حسب ما ذكر البكري (المغرب)[2].

وعلى غرار التجارة المريحة التي كانت بين بلاد المغرب والسودان الغربي كان هناك نوع آخر من التبادل بين القطرين الشمالي والجنوبي تمثل في جلب العبيد كسلعة هامة في خط متواز مع تجارة الذهب، وكان وراء هذه الظاهرة الضرورية العسكرية والاقتصادية التي ازدادت مباشرة بعد انتهاء عمليات الفتح وبداية الاستقرار، فترتب على ذلك عملية التعمير مما اضطر إلى تعدد مصادر توريد اليد العاملة كما ذكر الجنحاني في كتابه المغرب الإسلامي[3].

لقد شاع في بلاد المغرب ظاهرة جلب الرقيق من مناطق متعددة، وكانت بلاد كانم من بلاد السودان المنبع الرئيسي لتلك التجارة ابتداء من القرن الرابع الهجري[4]، ومن أهم فئات رقيق السودان، التكرور السنغاليون والصونكي الغيانيون والسونجائي من كاوكاو، أو الساءو وهؤلاء كانوا يُجلبُون من كانم نحو لمطة وإلى سجلماسة ثم من هنا يُوجهون إلى المغرب الأقصى وإلى الأندلس أو إلى ورجلان والجريد ثم إلى إفريقية وفزان وطرابلس وبرقة ومصر ثم إلى سائر بلاد المشرق كالعراق والشام وغيرها [5]، [5]، وكان هؤلاء العبيد يوجهون إلى العمل في الحقول والمناجم وحراسة القوافل التجارية، وفي الورشات الحرفية، واستخدامهم في الأعمال المنزلية، ويكفي أنه كان تاجرا من أودغشت يملك نحو ألف خادم من السود [6]، علاوة على أن حكام بلاد المغرب كانوا يتخذون من العبيد السود حُراسا شخصيين ابتداء من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، ومثالا على ذلك أن الأغالبة اعتمدوا على الزنجي في المجال العسكري بعد أن استغنوا عن الجندي العربي [7]، كما فعلت أيضا بني مدرار[8]، وكذلك العبيديون إذ اتخذ

---

[1] - ذكر هذه المدينة شهاب الدين السلاوي بعنوان غزو السودان وفتح مدينة كاغو ومقتل سلطانها إسحاق سكية رحمه الله، أنظر : الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971م، ج2، ص311..

[2] - البكري، المغرب، ص 159.

[3] - الجنجاني، المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1978م، ص 28-29.

[4] - الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية – تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ج2، ص 299. ؛ الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، 1981م، ج6، ص 169، ج9، ص 211.

[5] - ابن حوقل، صورة الأرض، ص 95 ؛ موريس لمبار، الجغرافية التاريخية للعالم الاسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، 1979م، ص 266.

[6] - البكري، المغرب، ص 168.

[7] - الجنجاني، المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1978م، ص 30 ؛ محمود إسماعيل عبد الرزاق، سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 1988م، ص333.

[8] - محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1976م، ص234.

اتخذ عبيد الله المهدي، مباشرة بعد بيعته، العبيد من السودان والروم الصقالبة كما ذكر " أبي على منصور العزيزي الجوذري " (سيرة الأستاذ جوذر) [1]، ولا يختلف المالكي (رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم) والمقريزي (كتاب المقفى الكبير – تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية –) في استخدام هذه الدولة للسودان ضمن عساكرها [2]، وذكر ابن عذاري، في البيان المغرب، أنه اجتمع للزيريين في أواخر القرن الرابع الهجري الألوف من السودان وُزعُوا على مختلف الدواوين" [3]، وقد أشار الجغرافيون أمثال اليعقوبي والإسطخري أن مدينة زويلة كانت محطة لتجمع القوافل المُزودة بالعبيد" [4]، وهكذا نالت تجارة الرقيق رواجا واسعا لما كانت تجلب من أرباح عظيمة، وقد وقد اتسع نطاقها في أواخر عهد بني زيري بفضل القرصنة، وهو الغزو في البحر [5]، فضلا عن ذكر البكري لاستجلاب السودانيات من أودغشت واستخدامهن كطباخات تُباع الواحدة منهن بمائة مثاقيل [6]، وذكر بن حوقل أن من بين ما كان يجهز من المغرب إلى المشرق الخدم المجلوبون من بلاد السودان [7]، وإلى جانب هذه التجارة الرائجة كان أيضا يجلب من بلاد السودان الأحجار الثمينة والعنبر وريش النعام والشب من كوار بالكانم، وكان بالغ الجودة ويُتجهز به إلى سائر البلاد ومنها بلاد المغرب حسب ما ذكر الإدريسي (نزهة المشتاق، ج1) [8].

وهكذا نتيجة للتجارة العابرة للصحراء أصبحت المدن المغربية مخازن لبضائع بلاد السودان وكانت توزع باتجاه صقلية والمشرق الإسلامي من شواطئ إفريقية، وباتجاه الأندلس وبلاد الإفرنج عبر مضيق جبل طارق [9]، وكان الذهب من أعظم تلك التجارة رواجا إذ ضلت المتاجرة به بهذا الشكل لستة قرون في العصور الوسطى [10].

---

[1] - القاضي النعمان، إفتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة التونسية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1986م، ص303 ؛ العزيزي الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م، ص35، 146..

[2] - كتاب المقفى الكبير، تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية، تحقيق محمد البعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1987م، ص 187.

[3] - ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان و أ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة،بيروت، ط3، 1983م، ج1، ص 238.

[4] - الحموي، البلدان، ص102 ؛ الإصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمدعبد العالي الحسني، دار القلم، القاهرة، 1381ه/1961م، ص 36-37 ؛ الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ج2، ص299..

[5] - الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، ج2، ص299..

[6] - البكري، المغرب، ص 158.

[7] - ابن حوقل، صورة الأرض، ص 95.

[8] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 118.

[9] - الجنجاني، المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1978م، ص 18.

[10] - لاكوست إيف، ابن خلدون، ترجمة ميشال سليمان، دار ابن خلدون، بيروت، ط2، 1978م، ص 21.

(المحاضرة السادسة)

السلع السودانية ومناطق إنتاجها :

أ – الذهب :

كان الذهب في العصور الوسطى رأس التجارة العالمية ولا يزال، ولذلك وعلى غرار ندرته بقي مصدره السوداني سرا مكتوما من طرف السودانيين المنتجين له، ولذلك حاولت عدة دولة الوصول إلى مصادره الأصلية التي هي على التالي :

– منجم ذهب البامبوك ويقع بين نهر السنغال الأعلى وفرعه فاليمي.

– منجم ذهب بوري عند ملتقى نهر النيجر الأعلى بفرعه تنكيسو.

– منجم ذهب لوبي على الفولتا الأعلى.

– منجم ذهب أشانتي في منطقة ساحل الذهب[1] .

وتذكر بعض مصادر الجغرافيا والرحلات أن مصدر هذا الذهب هو " بلاد ونقاره " التي يذكرها الإدريسي بأنها " هي بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة وهي جزيرة طولها 300 ميل وعرضها 150 ميلا. والنيل يحيط بها من كل جهة في سائر السنة ... فإذا أخذ النيل في الرجوع والجزر رجع كل من بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة بحثا يبحثون طول أيام رجوع النيل فيأخذ كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر" [2].

والظاهر أن بلاد ونقاره هذه التي ذكرها الإدريسي هي مناجم ذهب البامبوك ومناجم ذهب بوري في غانة، "ومن مدينة غانة إلى أول بلاد ونقاره ثمانية أيام"، فتحكمت غانة في هذا المنجم وفي أسعاره وكمياته المعروضة في السوق، وكان هذين المنجمين يزودان بلاد الشمال بالذهب، وأما منجم اشانتي على ساحل الذهب فقد كان في وسط غابات السفانا إلى الجنوب من بلاد السودان وتحكمت فيه قبائل وثنية [3]، وسوف يسعى البرتغال فيما بعد إلى جلب هذا الذهب إلى المركز الذي أنشئوه سنة 1432م على ساحل الذهب والذي يعرف بالمينا.

---

[1] - أنظر الخريطة المرفقة. مصدرها : الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983م، ج1، ص 383.
[2] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 23.
[3] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 23.

وفيما يخص أسواق الذهب فقد كانت العواصم السودانية أسواقا له، فقد ذكر الإدريسي أن كومبي كانت من أكبر أسواق الذهب، وكانت أودغشت، على مسيرة 15 يوما غربي كومبي، مخزنا مهما للذهب المستورد من السودان ليعاد تصديره إلى بلاد المغرب، كما ذكر البكري أن "سوقها عامرة الدهر كله لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله وتبايعهم بالتبر وليس عندهم فضة، وذهب أودغشت أجود ذهب أهل الأرض وأصحه"[1]، وكانت بعض مواطن استخراجه أسواقا له يتزود منها تجار المغرب كما ذكر الإدريسي[2] .

ب – <u>الملح</u> :

كان السودانيون المنتجون للذهب يتهافتون على الملح ويدفعون من أجل الحصول عليه المثاقيل من الذهب، وقد ارتبط المنتجان ارتباطا وثيقا، فكانت عملية المقايضت سارية بين الملح والذهب، وكان الملح بمثابة عملة " وبالملح يتصارف أهل السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعونه "، ولا غنى لأحد عنه في بلاد السودان حتى " أن المسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا إداما ولا دينارا ولا درهما إنما يحمل قطع ملح "[3]، ويُجلب الملح من عدة مناجم نذكر منها، ما هو خارج السودان بالشمال وأشهرها منجم ملح تغازى، وهي على مسيرة خمسة وعشرون يوما من سجماسة، " وهي قرية لا خير فيها ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر فيها إنما هي رمل" فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة[4]، وهناك منجم آخر ذكره البكري وهو منجم " تاتنتال " وهو يبعد بعشرين يوما عن سجلماسة، وذكر أن " من غرائب تلك الصحراء ملح تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن، ويوجد تحت قناة أو دونها من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة وعليه حصن مبني من حجارة الملح وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كل ذلك من ملح، ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان والعمل فيه متصل والتجار إليه سائرون وله غلة عظيمة"[5].

---

[1] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 24 ؛ البكري، المغرب، ص 158.
[2] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 24.
[3] - ابن بطوطة، رحلة بن بطوطة، دار إحياء العلوم، مطابع العيتاني، ط1، بيروت، لبنان، 1407ه/1987م، ص 692، 693.
[4] - ابن بطوطة، ص 691.
[5] - البكري، المغرب، ص 171.

أما مناجم الملح المحلية بالسودان فهي قليلة وقد وصف لنا الإدريسي إحداها بقوله : " أما جزيرة أوليل فهي في البحر على مقربة من الساحل وبها الملاحة المشهورة ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها "[1].

ج – <u>الرقيق</u> :

أقبل تجار شمال الصحراء على شراء الرقيق الذي تزخر به أسواق السودان بسبب الحملات التي تشنها الممالك القوية علي القبائل الصغيرة، والحروب التوسعية بين الممالك التي حكمت السودان ضد جيرانها الوثنيين التي تعتبر أراضيها منجما خصبا لا ينضب من هذه السلعة البشرية، فقد ذكر الإدريسي أن " أهل [...] تكرور وغانة يغيرون على بلاد لملم ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخليين إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار"[2]، وكان الرقيق معترفا به في بلاد السودان ويقبل الأهالي على شرائه، وحين زار ابن بطوطة منطقة تكدا التي يستخرج منها النحاس والذي يصنع أهلها قضبانا ذكر أنهم : " يشترون بغلالها العبيد والخدم"[3].

[1] - الإدريسي: نزهة المشتاق، ج 1، ص 17.
[2] - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 19.
[3] - ابن بطوطة، ص 711 .

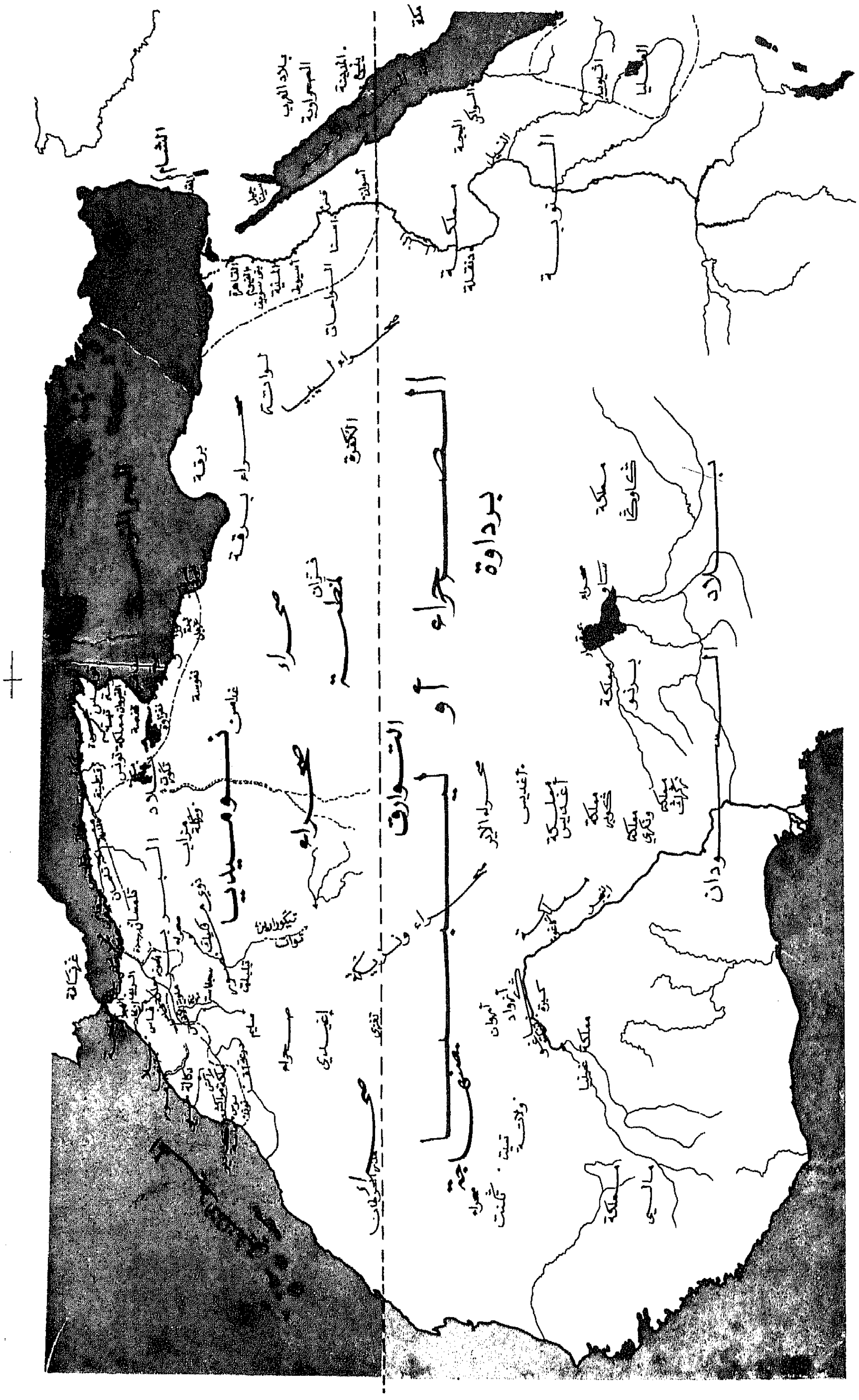

<u>المصدر</u> : الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983م، ج1، ص 383.

(المحاضرة السابعة)

دولة المرابطين وامتدادها في بلاد السودان :

علاقة المرابطين ببلاد السودان :

إن المتتبع للتطورات السياسية التي عرفتها صحراء صنهاجة اللثام طول العصر الوسيط، سيلاحظ إخفاقا متواليا لكل محاولة تستهدف إقامة وحدة سياسية قوية ومستمرة بين القبائل الصنهاجية، ولا شك أن انتشار الإسلام بينهم خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، قد هيأ ظروفا مساعدة لمثل هذه الوحدة، إلا أنه كان غير كاف أمام التحديات القاهرة التي تفرضها طبيعة ومُناخ الصحراء.[1]

وفي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تمكنت مملكة غانة من السيطرة على أودغشت، وظلت الوضعية السياسية لصنهاجة اللثام مضطربة إلى حين بداية العقد الثالث من القرن الخامس الهجري، حيث تمكنوا من توحيد صفوفهم تحت زعامة الأمير أبي عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتارشتا اللمتوني(ت. 425 هـ/ 1034م)، وتذكر المصادر أن الزعيم الصنهاجي الجديد كان من أهل الفضل والدين والحج والجهاد[2]، ولكن هذا الأخير استشهد بعد ثلاثة أعوان في مكان محاذ لقبيلة بني وارث الصنهاجية، وعلى هذا الأساس فإن جهاد تارشتا للسودان لم يشمل، وذلك على أبعد تقدير، سوى بعض قبائل السودان الموجودة على الهوامش الشمالية لمملكة غانة[3]، ويبدو أن مثل هذه العمليات الجهادية الصنهاجية لم تكن تثير مملكة غانا وكانت هذه متزامنة مع جهاد أهل مدينة " سلي " على الحدود الغربية للمملكة[4]، بينما كان للمسلمين حظوة عند حُكام غانة وأهلها، فيتهيأ أن ملوك غانة كانوا يرغبون في تحويل المجتمع الغاني للإسلام ما دام الغرض من تلك الحركة الجهادية هو نشر الإسلام وليس المساس بكيان المملكة.[5]

وبعد هلاك الأمير محمد بن تيفاوت اللمتوني قرابة عام (425 هـ/ 1034م)[6]، تولى صهره يحي بن إبراهيم الجدالي أمر صنهاجة من بعده، وبذلك انتقلت رئاسة الحلف الصنهاجي لأول مرة في تاريخه

---

[1] -أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي (1230-1430م)، ط1، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، المجتمع الثقافي، 1420هـ/ 1999م، ص 120.

[2] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 121؛ ابن أبي زرع، القرطاس، ص 121؛ البكري، ص 164.

[3] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 121.

[4] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص121؛ البكري، ص 172.

[5] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 121- 122.

[6] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 122؛ الكري، ص 164؛ ابن أبي زرع، ص 122.

من لمتونة إلى جدالة.[1]

وفي عام (427هـ/1036م) استخلف الأمير يحي بن إبراهيم الجدالي ابنه إبراهيم على رئاسة الحلف الصنهاجي، وقصد المشرق لحج بيت الله الحرام، وفي طريق عودته توقف بالقيروان للأخذ عن شيخ المالكية بالمدينة، أبي عمران الفاسي[2]، وقد وجد هذا الأخير أن الأمير الصنهاجي الجدالي صحيح النية والعقيدة واليقين إلا أنه كان ذا علم متواضع بما يصلح دينه، ولم يكن يحفظ من الكتاب والسنة حرفا[3]، وبعد انتهاء الحوار الذي دار بين الطرفين طلب الأمير الصنهاجي من الشيخ أبي عمران الفاسي أن يوفد معه أحد تلامذته إلى الصحراء ليعلم صنهاجة أحكام دينهم، إلا أن الطلبة أشفقوا على أنفسهم من دخول الصحراء فكان أن كتب أبا عمران رسالة إلى " واجاج بن زلُو " شيخ رباط نفيسي، يوصيه فيها بالأمير، ويطلب منه أن يحقق رغبته[4].

وفي أحد شهور عام (430هـ/1039م)، وصل يحي بن إبراهيم إلى الرباط المذكور، وسلم الرسالة لصاحبها، فقرأها " واجاج " على تلامذته، ثم انتدب منهم عبد الله بن ياسين الجزولي لمرافقة الأمير لبلاد صنهاجة[5]، وقد قبل الطالب عرض شيخه دون تردد، وربما أظهر حماسا[6]، وعبد الله بن ياسين الجزولي من قبيلة جزولة من أهل سوس، وبحكم العلاقات التجارية بين منطقة سوس وبلاد السودان يمكننا القول بأن الصحراء لم تكن غريبة عنه جغرافيا ولا بشريا.[7]

قامت الدولة المرابطية في صحراء الملثمين خلال النصف الأول من القرن ال5هـ الموافق للقرن ال11م، وقد تمكنت هذه الدولة الملثمية من إعادة بسط نفوذها على صحرائها كلها، بعد تحريرهم الأجزاء التي كانت غانة تحتلها، بل إن سيطرتهم تجاوزت مناطق نفوذهم التقليدية لتشمل معظم أجزاء المغرب الإسلامي خلال القرن ال5هـ، مما مكنهم من تحقيق الأهداف التي كانوا يصبون إليها، حيث سيطروا على الطرق والمراكز التجارية ووضعوا حدا لهيمنة منافسيهم في المناطق في المجالين الاقتصادي والسياسي، خاصة غانة وزناتة، كما تمكنوا من توحيد منطقة نفوذ جديدة لدولتهم يسودها

---

[1] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 122.
[2] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 122؛ البكري، ص 164؛ ابن أبي زرع، القرطاس، ص 122.
[3] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 123؛ ابن أبي زرع، الروض القرطاس، ص 122.
[4] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 123.
[5] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 123؛ البكري، ص 165؛ ابن أبي زرع، ص 123.
[6] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 128؛ ابن أبي زرع، الروض القرطاس، ص 123.
[7] - أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع. ، ص 128؛ ابن خلدون، العبر، ج 1، ص 99، ج 6، ص 320، 577.

المذهب السني المالكي[1]، ويمكن القول أن سيطرة المرابطين على الصحراء لم تتم بشكل مضبوط ومحدد إلا بعد أن أحكموا سيطرتهم على المراكز التجارية الكبرى ومنطلقات الطرق على طرفي تلك الصحراء، خاصة أودغشت سنة 1054م وسجلماسة سنة 1055م، فاكتمل قيام دولة المرابطين في الصحراء وتتالى على حكمها مجموعة من الأمراء بذل كل واحد منهم جهودا مضنية لتدعيم أركانها وتأمين استمراريتها وتمكينها من أداء رسالتها المتمثلة في نشر الإسلام السني المالكي في المنطقة.[2]

[1] -الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا من منتصف ...، تقديم أ.د. محمد حجي، 1412هـ/ 2000 م، ص 123، (أطروحة دكتوراه بجامعة محمد الخامس)، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

[2] -الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين ....، ص 140.